سلسلة الذين أضاءوا الدّرب لسناء شعلان: الشراكة بين الموهبة المتميّزة والمؤسسة الرائدة في سبيل حلم عملاق.

د. سفيان العزّة/ فلسطين

ـــبالجملة الافتتاحية اللازمة في كلّ قصص سلسلة الذين أضاءوا الدّرب " أيّها الطفل العربيّ لك تاريخٌ عربيٌّ مشرّفٌ.فاقرأْ وتعلّمْ واعملْ" (1) نستطيع أن نخلص إلى رؤية هذه السلسلة وأهدافها وأحلامها، ذلك بالطبع قبل الوقوف على جمالياتها الإبداعية والفنية والإخراجية،وهي سلسلة تقول كاتبتها إنّها البصمة التي تريد أن تتركها في سفر إبداع الأمة،وهي عمل تعدّه مشروع عمرها الثقافي؛لأنّها كما تقول الشعلان: عمل إذا حقّق أهدافه سيكون رافداً من روافد الأمة الإبداعية ممثّلة بتقديم النموذج الإيجابي الخلّاق والمبدع للطفل المسلم في كلّ مكان. ومن هدف سناء الشعلان المعلن نستطيع أن نفهم لماذا وُلدت سلسلة : الذين أضاءوا الدّرب، ومن هم الذين أضاءوا الدّرب؟ولماذا؟ وبماذا؟ وأيّ درب أضاءوا؟ وماهو واجبنا تجاه هذا الدّرب؟

إ نّ الذين أضاءوا الدّرب هم بلا شكّ علماء الأمة الإسلاميّة وعظماؤها وأبطالها ومخترعوها ومكتشفوها عبر تاريخ طويل لاسيما في عصورها الذهبية حيث كانت الأمة الإسلامية هي قلب الحضارة الإنسانية، وصانعة مادة المنجز الحضاري، وهي من تصدّره إلى كلّ العالم آنذاك،وبغية كلِّ طالب علم أو باحث عن نور، وهم بذلك قد أضاءوا دروب الإنسانية في مدارج الحضارة والرّقي،ومهّدوا الطريق نحو التقدّم ليس للعرب والمسلمين وحسب بل للإنسانية جمعاء،وهو أمرٌ لا يستطيع أن ينكره أو يجحده منصفٌ أو عالمٌ موضوعي.

وأبطال هذه السلسلة قد أضاءوا الدّرب بالعلم والعمل المخلص الدؤوب والإيمان وحبّ الأوطان والإيمان بالذات والتجربة والعمل والتعالي على مفاتن الدنيا، والتجاوز

عن الصغائر واللذات الفانية، فاستحقّوا بذلك أن تُنقش أسماؤهم في سفر الخلود، الذي ضرب الكثير عنه صفحاً في الوقت الحاضر، فقطعوا علاقاتهم به، وتناسوا مجدهم، وعراقة حضارتهم، واستلبهم الآخر، فباتوا يلهثون وراء حضارته، غثّها وسمينها،وطفقوا يترنّمون بمنجزات حضارته وبعلمائها، وشرعوا يقلّدون الآخر في كلّ شأنه، ونصبوا من أصنامه وأوثانه رموزاً وقدوات تُحتذى،وتُعظمّ،واستصغروا تراثهم وإرثهم الحضاري العريق،فحّق عليهم السقوط والتردّي،وماهذه السلسلة إلاّ إيقاظٌ لضمير الأمة، وتذكير برمزها، واستبدالهم برموز الآخر، لتكون الصحوة والنهضة على أساس الماضي العريق،لا على أساس التقليد المشوّه الأعمى،إذن فالذين فسلسلة الذين أضاءوا الدّرب هي دعوة صريحة إلى السّير في دروب عظماء الأمة؛لتكون الصحوة، وتستأنف الأمة الإسلامية حضارة العلم والعطاء والرّقي ،وماهذه السلسلة تاريخٌ يُنضّد ويُذكّر به، بل هي كما تقول الجملة المفتاح لكلّ قصص السلسلة دعوة إلى التعلّم والعمل.(2)

ويبدو أنّ سناء الشعلان قد ركنت إلى معيار خاص لاختيار أبطالها يتلخّص في ثلاثة أمور، نستطيع أن نستنتجها من مطالعة قصص السلسلة الثلاث الأولى:_ العزِّ بن عبد السّلام: سلطان العلماء وبائع الملوك (3)،و عبّاس بن فرناس:حكيم الأندلس (4)،و " زرياب: معلّم الناس والمروءة"(5).وهي: عظم الأثر وأهمية المنجز لبطل القصة، ومدى أهمية بصمته في حضارة الإسلام،ومن ثم أن يكون البطل من سجلّ الحضارة الإسلامية، وأخيراً أن يكون البطل لم ينل إلا القليل من الكتابة عنه، والتعريف به في العصر الحديث في حقل أدب الأطفال.لذلك كانت القصص الثلاث الأولى في السلسلة مفاجأة سارة لكلّ مربٍ أو طفلٍ أو مهتم ،؛ فهي تعرّف بثلاثة رجال كان لهم بصمتهم: في عالم الموسيقى شأن زرياب، وفي عالم القضاء والإفتاء والجهاد شأن العزّ بن عبد السلام، وفي عالم الاختراع والطيران شأن عباس بن فرناس.

وقد استطاعت الشعلان أن تحقّق الثالوث الصعب في الكتابة للأطفال؛ فهي قد حافظت على خيط سردي ممتع، يجعل القراءة متعة حقيقية للطفل، ويدفعه نحو

القصة، وهي بذلك قد كسرت رتابة المادة التاريخية وجمودها، التي قد تقطع التواصل بين الطفل والقصة إذا لم يحسن الكاتب الاحتيال على ذلك، وحافظت في الوقت نفسه على مصداقية المعلومة ودقتها، ومن يقرأ القصص يستطيع أن يخلص إلى أنّ كلّ قصة هي نتاج بحث علمي طويل ودقيق في المراجع والمصادر وأمهات الكتب،ولعل كون الشعلان هي أساتذة جامعية في الأصل تحمل الدكتوراه في النقد،وباحثة أكاديمية قد جعلها تخلص للدقّة والأمانة العلمية، ومن ثم استطاعت الشعلان أن تقدّم قصصها في لغة رشيقة عربية مضبوطة،يسهل على الطفل تناولها وفهمها دون أن تجنح إلى الركاكة، بل إنّ الشعلان قد التزمت بخطة في قصص السلسلة حتى الآن، إذ إنّها تحافظ على بعض الكلمات التراثية المهجورة، وتستقرضها من معجم بطل قصتها إبّان زمانه، ومن ثم تضع معنى تلك الكلمات التي تظنّ أنّ الطفل يجهل معناها بين قوسين بلون مختلف، وبذلك توفّر للطفل معجماً لغوياً غنيّاً، وتربطه بالمعجم التراثي للحضارة الإسلامية– إن جاز التعبير–وهي خطة ذكية لكي يوسّع الطفل معجمه دون أن يقع تحت ضغط التعلّم المباشر،بل هو بهذه الطريقة يتعلّم الكلمة الجديدة دون أن يقع تحت ضغط التعلّم المباشر؛ لأن معرفة معنى الكلمة شرط خفي كي يفهم الطفل ما يقرأ،ويكمل قراءة القصة.

وقد قيّد القدر لهذه السلسلة أن تصدف مؤسسة نادي الجسرة الثقافي في قطر، فتوافقت الآمال، واتّفقت الرؤى والمناهج والمبادىء، فتتبنّت المؤسسة السلسلة، وأصدرتها ضمن خطة عملاقة ورائدة في سبيل سبيل تقديم قصة عربية تحترم الخصوصية الفكرية والثقافية للطفل، وتراعي ذوقه،دون أن يكون ذلك على حساب متعته وإعجابه بل وحبه لما يقرأ.بل إنّ القصص خرجت في حلّة قشيبة من الورق الجيد والألوان الميزة والرسومات الجميلة، مما يؤهل السلسلة لأن تنافس بكلّ سهولة على اهتمام الطفل القارىء وعلى إعجابه.

ويبقى السؤال اللاهث الملحّ : هل سيستمرّ هذا المشروع الرائد الذي نأمل الكثير منه؟ ونستطيع القول إنّه سيكون من البصمات الخالدة لأدب قصة الاطفال في المشهد الإبداعي العربي؟ أم أنّه سيتقزّم ويتلاشى شأنه بذلك شأن الكثير من المشاريع الإبداعية التي ظهرت في المشهد الإبداعي العربي ثم انتحرت أو أُغتيلت أو

ماتت لسبب أو لآخر؟ هذا السؤال المهم قد تكون إجابته فقط عند سناء الشعلان ونادي الجسرة الثقافي.

———

1- انظر الغلاف في: سناء شعلان:العزّ بن عبد السلام سلطان العلماء،وبائع الملوك، ط 1،الجسرة الثقافي،قطر،2007؛ سناء شعلان:عبّاس بن فرناس:حكيم الأندلس" 2007م،ط 1، نادي الجسرة الثقافي،قطر،2007؛ سناء شعلان: زرياب: معلّم الناس والمروءة" 2007م، ط 1، نادي الجسرة الثقافي،ط 2007،1.

2- نفسه.

3- سناء شعلان: العزّ بن عبد السلام: سلطان العلماء،وبائع الملوك.

4- سناء شعلان:عبّاس بن فرناس:حكيم الأندلس.

5- سناء شعلان: زرياب: معلّم الناس والمروءة.